مسابقة الجامعة المصرية

لطلبة السنة التوجيهية

للدكتور زكى مبارك

— ١ —

تمهيـــد

كان يراد بالجامعة المصرية ، الجامعة التى أنشأتها الأمة سنة ١٩٠٨ ، والتى تحولت إلى جامعة أميرية سنة ١٩٢٥ ، وقد سميت «جامعة فؤاد الأول» سنة ١٩٣٨ تكريماً لذلك الملك العظيم ، لأنها أنشئت فى عهده ، ولأنه كان أول رئيس للجامعة المصرية .

وأنا حين أقول « الجامعة المصرية » ، لا أريد « جامعة فؤاد الأول» بالقاهرة ، ولا «جامعة فاروق الأول» بالأسكندرية ، وإنما أعنى «الجامعة المصرية» التى تنتظم هاتين الجامعتين ، وما سيُنشأ من جامعات فى مدائن الشمال ومدائن الجنوب: كالمنصورة وأسيوط.

والحال كذلك فى غير مصر ، فالفرنسيون يقولون « الجامعة الفرنسية » حين يريدون المعنى الجامعى بلا تقييد ، فإذا أرادوا التخصيص قالوا : « جامعة باريس » و « جامعة ليون » إلى آخر ما هنالك من جامعات

والمسابقة الجامعية التى أقرتها وزارة المعارف ، لا تخص جامعة فؤاد الأول ، ولا جامعة فاروق الأول ، وإنما تعمّ جامعة القاهرة وجامعة الأسكندرية ، فهى إذاً مسابقة « الجامعة المصرية »

موضوع هذه الدراسات

ويجب أيضاً أن نحدد الغرض من هذه الدراسات فنقول : هو أولاً توجيه لطلبة السنة الخامسة بالمدارس الثانوية ، وهو ثانياً تلخيص لطائفة من آثار الأدب الحديث

ولـكن كيف نجمع بين هاتين الفائدتين ؟ وكيف نسلك مسلك « التحبيب » ، وهو منهج من مناهج أسلافنا الفضلاء ؟

يجب أن يكون مفهوماً أن هذه الدراسات موجهة إلى جميع القراء ، وإن كان الغرض منها توجيه طلبة السنة الخامسة الثانوية إلى الاستفادة من مسابقة الجامعة المصرية ، وذلك يوجب أن ننظر فى تلك المؤلفات بترفق وتلطف ، بحيث يمكن جذب الطلبة والجمهور إلى إدراك ما فيها من مقاصد وآراء بدون تزيد وبدون

وأما فى الآخرة فحسبك هذه الآية من آيات : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار »

ذلـكم الإحسان الذى يدعو إليه القرآن ، وذلـكم جزاؤه فى الدنيا والآخرة . على الإنسان أن يحسن ما استطاع ولا جناح عليه بعد إحسانه أن يستمتع بالطيبات من الرزق فى هذه الحياة . وأن يبلغ من هذه الدنيا ما يشاء ! وقد تلوت أنت هذه الآية :

« ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين »

وهذه آية أخرى جامعة :

«وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد فى الأرض، إن الله لا يحب المفسدين »

ذلـكم هدى القرآن فى الإحسان ، وقد جاء فى السنة حديث جامع : « إن الله كتب عليكم الإحسان فى كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » يعنى إذا لم يكن بد من قتل إنسان قصاصاً فليقتل قتلة حسنة لا مثلة فيها ولا تعذيب؛ وإذا ذبحتم الحيوان فاذبحوه بأحسن وسيلة ، الوسيلة التى تؤدى إلى المقصود دون تعذيب كذلك

وبهذا الهدى سار المسلمون الأولون ، فأحسنوا أقوالهم وأفعالهم وأحسنوا إلى الناس وبالغوا فى الإحسان والإنفاق فنالوا جزاء المحسنين من السيطرة على الدنيا بالحق والسعادة بها وحسن الجزاء فى الآخرة

وإن فيهم لأسوة حسنة للمتخلفين من بعدهم ، فليجدوا فى الإحسان ولينافسوا فيه. ليحرصوا على الإحسان فى العلم والمعرفة والقول والفعل وفى كل صنعة وكل نظام تستقيم به أمور الناس على هذه الأرض، فقد دعا الإسلام إلى الإحسان كاملاً عاماً شاملاً. ومن أخلق من المسلمين بإجابة هذه الدعوة ؟

عبد الوهاب عزام

إسراف ، فما يجوز أن نصف كتاباً بما ليس فيه ، أو أن نحمّل مؤلفاً ما لا يطيق

تنبيه يفرضه منهج الدرس

ليس الغرض من هذه الدراسات أن يرجع إليها الطالب قبيل المسابقة بيوم أو يومين ، وإنما الغرض هو توجيهه إلى الاستفادة من تلك المؤلفات ، فهو مسئول عن مراجعتها فصلاً فصلاً وجملة جملة ليدرك بنفسه أغراض المؤلفين ؛ فإن لم يفعل فهو متواكل مخذول ، ولن يظفر من المسابقة بشيء ؛ ولو كنتُ أتوهم أن طلبة السنة التوجيهية سيستغنون بهذه الدراسات عن المراجعة والاستقصاء لطويتها عنهم ، فما أحب أن يكون في شباب اليوم من يغنيه الوصف عن تعرف حقيقة الموصوف

قراءة الناقد وقراءة المستفيد

تنقسم القراءة إلى قسمين : قراءة فهم واستفادة ، وقراءة نقد واستقصاء

فما قراءة الطالب لهذه المؤلفات ؟

يجب أن تكون القراءة الأولى — أو القراءات الأولى — قراءة فهم واستفادة ، بحيث يهتم القارئ أولاً وقبل كل شيء بتفهّم أغراض المؤلفين والانتفاع بما يحلّون من مشكلات ، وما يعرضون من آراء ، فإذا انتهى من ذلك وتفهّم الكتابَ تفهّماً صحيحاً رجع إليه فقرأه من جديد قراءة النقد والاستقصاء ، والمراد من النقد هو التعرف إلى نفسية المؤلف وإدراك ما في أقواله وآرائه من قوة وضعف ، وصحة وبطلان ؛ والمراد من الاستقصاء هو ربط أفكار المؤلف بما سبق للقارئ الاطلاع عليه من أفكار الباحثين ، لتصح له الموازنات بين القراءات القديمة والقراءات الجديدة بصورة تقنعه بأنه تحرر من سيطرة المؤلف واطمأن إلى قدرته على المفاضلة بين رأي ورأي وأسلوب وأسلوب

وإذا انتفع الطالب بهذا التوجيه فسيفوز حتماً وسيخرج بمحصول نفيس يكون من أنفع ذخائره الأدبية في الحياة الجامعية . والله عز شأنه هو الموفق

فيض الخاطر

ونبدأ هذه السلسلة بدراسة كتاب « فيض الخاطر » لحضرة الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب ، والمقرر للمسابقة هو الجزء الأول فقط ، فإذا استطاع الطالب أن ينظر في الجزء الثاني أيضاً وأن يأخذ عنه فكرة مجملة كان ذلك أبلغ في الإحاطة باتجاهات المؤلف ومعرفة ما يعتلج في نفسه من أفكار وآراء

نشر الجزء الأول سنة ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م وهو يقع في ستين وثلثمائة صفحة بالقطع المتوسط (إلى أن نضع تحديداً دقيقاً لما يسميه الفرنسيون Format)

والمؤلف يصوّر محتويات كتابه فيقول إنه « مجموع مقالات أدبية واجتماعية » نُشر بعضها في « الرسالة » وبعضها في « الهلال » وبعضها لم يُنشر في هذه ولا تلك »

ومقالات الكتاب تُعَدُّ بالعشرات ، أو هي بالضبط اثنتان وسبعون مقالة ، وقد وُضعت في أماكنها من الكتاب بدون ترتيب ، لأن الترتيب لم يكن ملحوظاً في إنشاء هذه المقالات ، وقد وضعت أيضاً بدون تاريخ ، لأن المناسبات لم تكن ملحوظة ، فهي آراء يتصل بعضها بالعصر الجديد وبعضها بالعصر القديم ، بدون التفات إلى روابط التاريخ

ومع هذا التلطف في الاعتذار عن المؤلف فقد كنا نحبّ أن يؤرخ تلك المقالات ، لأن منهج التأليف يوجب ذلك ، ولأن الباحث قد يحتاج إلى تواريخ تلك المقالات بعد حين

الأسلوب

يتفق الأستاذ أحمد أمين في أحيان كثيرة أن يقول إنه يراعي في أسلوبه ذوق العصر ، كالذي صنع منذ أكثر من عشرين سنة يوم نشر كتاب « الأخلاق » ، وكالذي صنع في مقدمة « فيض الخاطر » حين قال : « وخير أسلوب عندي ما أدى أكثر ما يمكن من أفكار وعواطف في أقل ما يمكن من عُسر وغموض والتواء ، وراعك بجمال معانيه أكثر مما شغلك بزينة لفظه ، وكان كالغانية تستغني بطبيعة جمالها عن كثرة حليها »

وهذا القول يشهد بشعور المؤلف بأن أسلوبه خالٍ من الزُّخرف والبريق والرُّواء ، وبأنه لا يعوّل على جمال الألفاظ ، وإنما يعوّل على جمال المعاني

والأمر كذلك في أسلوب الأستاذ أحمد أمين ، فهو يكتب كما يتحدث ، بلا عُسر ولا غموض ، ولا يهمّه حين يؤدي المعنى تأدية واضحة أن يقال إن أسلوبه ليس بالأسلوب الرشيق ، وقد يتفق له أن ينقل العبارة الواحدة من موضوع إلى موضوع حين يراها تصل به إلى ما يريد ، كعبارة « رُواء في العين ، ولا شيء في اليدين » فقد كررها بلفظها في موضعين مختلفين ،

وقد يأنس بتعابير العوامّ حين يراها تؤدى الغرض المقصود ، كأن يقول : « وراحتْ أيام ، وجاءت أيام » وهو مع ذلك ينقل بعض تعابير القدماء إلى كلامه من حين إلى حين ؛ كأن يقول فى سياق أحد الأحاديث « تجيئك بمهاة وقليل ماء »

أسلوب أحمد أمين ليس بالأسلوب الرشيق ، وأحمد أمين ليس من « دهاقين الكلام » كما كان يعبّر القدماء ، ولا عبرة باعتذاره بأن المهمّ هو المعانى ، ولا قيمة للنفض من الزخرف والبريق والرُّواء ، لأنها عناصر أساسية من الأسلوب الجميل

ولكن يجب الاعتراف بأن أسلوب أحمد أمين له شخصية تتميز بالسهولة والوضوح ، فهو يعبّر عن ذات نفسه تعبيراً صحيحاً ، وهو يُقنِع وإن كان لا يَفتن ، لأنه يبنى الإقناع ولا يَنشُد الفُتُون ، وليس ما وصل إليه بالغُنْم القليل

موضوعات الكتاب

فى كتاب « فيض الخاطر » موضوعات أدبية واجتماعية ، وبعض الموضوعات الأدبية تراجم لرجال أَنِس بذكرهم المؤلف ، كترجمة أبى مِحجَن الثقفى ، وفى هـذه الترجمة تحدث المؤلف عن « الطائف » فى الجاهلية والإسلام حديثاً طريفاً ، وكان أكبر همه أن يُبيّن قيمة الشخصية الخُلُقية لشاعر لا ينتهى عن الخمر إلا حين تُصبح له من المباحات بفضل ما أبلَى فى الحروب . والنظر فى هذه الترجمة ينفع ، لأن فيها معارف تاريخية وجغرافية ، ولأنها تصور حِرص المؤلف على التنويه بقيمة الاعتزاز بالنفس فى بناء الشخصية الخلقية

وأبو مِحجن هو الشاعر الذى تعقّبه عمر بن الخطاب بالنفى والتشريد لهذين البيتين :

إذا مت فادفنّى إلى جنب كَرمةٍ
تروّى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفننّى فى الفـــلاة فإننى
أخاف إذا ما مُتّ أنْ لا أذوقها

وهنا يقول المؤلف : « ويشاء قاصّ من الظرفاء فيروى أنه رأى قبره بنواحى أذربيجان أو جرجان وقد نبتت عليه ثلاث كروم قد طالت وأثمرت واعترشت »

ونقول إنه لا موجب لعبارة « قاصّ من الظرفاء » التى تفيد الكذب والاختراع ، فليس من المستبعَد أن يحقق العرب مثل هذه الوصية ، وكان من خير المدح عندهم أن يكون الرجل « شِرِّيبَ خمرٍ مِسْعَراً لحروب » وقد صُقِلتْ أذواقهم بالانتقال إلى فارس وطن الأعناب والصهباء ، وهل يكثُر على العرب أن يصنعوا مع قبر أبى محجن ما صنع الفرنسيون مع قبر ميسّيه وما صنع الفرس مع قبر الخيّام ؟

العرب أظرف مما يتوهم الأستاذ أحمد أمين ، و « القاصُ الظريف » لم يقل ما قال إلا استجابة لما فُطر عليه العرب من الظَّرف فى رعاية حقوق الشعراء

وفى كتاب « فيض الخاطر » ترجمة للأحنف بن قيس ، وهى ترجمة نفيسة جداً ، ويجب على الطالب أن ينظر فيها بعناية ، فقد تفيد فى الإجابات التحريرية أو الشفوية ، لأنها بالفعل من أطايب هذا الكتاب ، والأستاذ أحمد أمين يجيد حين يتعرض لموضوع وُجدتْ عناصره الأصيلة فى كتب القدماء

وفيه ترجمة لسيبويه المصرى ، وفى هذه الترجمة فكاهة وأدب وتاريخ ، وهى جديرة بالالتفات

ويتصل بهذا النوع ترجمته للّون الأصفر فى العصر العباسى وهى نبذة طريفة تصور جانباً من الذوق الاجتماعى فى ذلك العهد والأذواق تُترجَم كما يترجَم الأشخاص !

أما التراجم الحديثة فأهمها ترجمة عاطف بركات وترجمة على فوزى ، وقد أجاد الكاتب فى هاتين الترجمتين ، وإن كان انحرف بعض الانحراف فى الترجمة الثانية ، لأنه صور فرار على فوزى من المجتمع المصرى بصورة العقل ، ولو أراد الحق لعدّ ذلك الفرار من صور الجنون ، وعذر المؤلف أنه أراد الترفق بأستاذه وهو يرثيه ، وإلا فكيف يكون الانصراف عن الزواج رحمة بالمرأة وهى لا ترى الأمان إلا فى رحاب الزواج ؟

إن الكاتب حبّر هذه المقالة فى لحظة غضب على المجتمع ، وبذلك استجاز أن يرى الانسحاب من ميدان الجهاد دليلاً على رجاحة العقل ، ولو أنه كتب هذه المقالة فى لحظة هدوء لرأى أن تصرف المرحوم على فوزى بك لم يكن إلا تصرف رجل مريض صدّه المرض عن الاضطلاع بأعباء الأسرة ، وصرفه عن المشاركة فى النهوض بالواجبات الوطنية

وعلى ذلك تكون هذه المقالة من الأدب الذاتىّ ، وهو الأدب الذى يصوّر الكاتب قبل أن يصوّر المجتمع ، وهى مقالة لها تفاسير فى أدب الأستاذ أحمد أمين ، فقد شهد على نفسه فى كتابه هذا بأنه قليل الضحك كثير البكاء ، وذلك سر نجاحه كاتباً ، لأن

الأمم التى تعانى الاضطهاد ، أو تتوهم أنها تعانى الاضطهاد تميل إلى الكاتب الذى يكثر من شرح معانى الضجر والاكتئاب

وننتهز هذه الفرصة فنشير إلى المقال الذى عنوانه «الضحك» والمقال الذى عنوانه « سيدنا » فهما يصوران شقاء الكاتب بالناس والزمان ، فقد ضربه معلمه فى الطفولة ضرباً قاسياً عنيفاً ، ضربه ضرباً قضى بأن يستريح فى المنزل نحو أسبوعين ، والذى يواجه بأمثال هذه المكاره وهو فى طهارة الطفولة لا يرى الناس إلا قطعاناً من ضاريات الذئاب

ولم يفت الأستاذ أحمد أمين أن يعقب على ذلك السلوك الفظيع من معلمى الأطفال ، فقد عده رياضة على تحمل مكاره الحياة ، ولعله صدق ، فقد قام الدليل على أن الخوف من المجتمع هو أنجع الوسائل فى الانتصار على المجتمع

وهذه النظرة تفسر ما يغلب على كتابات الأستاذ أحمد أمين من الميل إلى الجد الصرف ، واستهانته بالأزهار البواسم فى رياض الآداب والفنون ، كالذى وقع فى مقال « أدب القوة وأدب الضعف » وهو مقال جيد من حيث التصوير لنفسيته الذاتية ، وهى نفسية الرجل الذى صرح فى مقالة « الموت والحياة » بأن الأمر فى السعادة إلى ما فى داخل النفس لا فى خارجها ، وأن فى الدنيا نفوساً قد تشقى فى النعيم ونفوساً قد تسعد فى الشقاء

وكذلك نرجو أن يفطن طلبة السنة التوجيهية وهم يقرأون كتاب « فيض الخاطر » إلى أن المؤلف أديب يصور لواعج نفسه قبل أن يصور بلايا المجتمع ، وإذا كان أحمد أمين قد نجح نجاحاً ملحوظاً فى حياته الأدبية والماشية ، فهو نجاح السباح المغامر الذى عانى ويلات الخطوب وهو يقارع الأمواج فى ليلة داجية مثقلة الحواشى بالعواصف والأنواء

ونخرج من هذا بأن أحمد أمين لم يكن مرائياً فى قصر أدبه على الجد الصرف ، فهو فى حقيقة الأمر رجل حزين ، وإن كان يستريح إلى أحاديث الدعابة والمجون حين يخلو إلى أصدقائه الخواص ، وهل يستريح إلى الدعابة إلا الرجل المكروب ؟

إن هذا الرجل أعلن فى كتابه أنه يتشهى ضحكة قوية يمسك منها صدره ، ويفحص منها الأرض برجليه ، ضحكة تملأ شدقيه ، وتبدى نواجذه ، وتفرج كربه الأليم ، وتكشف همه المقيم . ولكن تلك الضحكة القوية لن تتاح لمن كان فى مثل حاله من الحرص على الوقار والتزمت ، والخضوع لأهواء المجتمع البليد الذى يرى المرح من عيوب الرجال

وهنا أذكر نكتة قصها رجل سخيف ، رجل لا يؤمن بأن الشيخ محمد عبده كان من العظماء ، لأنه شهده مرة وهو يضحك بقوة وعنف كما يضحك الأطفال

والنكتة هى ضحك الشيخ « محمد عبده » بتلك القوة وبذلك العنف ، والعظيم عظيم فى كل شىء حتى فى الهزل والمجون ، وكان محمد عبده عظيما فى الجد وعظيما فى المزاح ، ولن تكمل الشخصية الإنسانية إلا إذا استوفت معانى المرارة والحلاوة والقسوة واللين

قال الراوى : كان محمد عبده يضحك ضحكا ينافى وقار العلماء

وأقول إن محمد عبده لم يكن واحداً من العلماء ، وإنما كان أوحد العلماء ، وللأوحد مزايا لا يتمتع بها الآحاد

وقد أخبرنا الأستاذ « أحمد أمين » فى كتابه أنه سيحاول الضحك . فهل ضحك ؟ كتب الله لى وله نعمة القدرة على الاستهانة بمكايد الناس ومكاره الزمان !

أما بعد فنى كتاب « فيض الخاطر » مقالات نخصها بالحمد بلا تحفظ ، وندعو الطلبة إلى فهمها بعناية وحرص ، كمقالة « عدو الديموقراطية » وهى من أبدع ما كتب أحمد أمين ، ومقالة « الإشعاع » وهى مقالة رفضتُ النظر إليها فى الكتاب ، لأنى فوجئت بها فى مجلة الرسالة وأنا راجع من فرنسا فى صيف سنة ١٩٣٣ فكان لها تاريخ فى تحديد ما بينى وبين الأستاذ أحمد أمين ، ومع طول العهد ومع النُّفرة من مراجعة هذه المقالة فأنا أعتقد أنها من غُرر الأدب الحديث ، وقد كُتبت هذه المقالة فى لحظة من « لحظات التجلى » وهو عنوان لمقال طريف وُفق الكاتب فى فقراته الختامية إلى معانٍ لا تصدُر إلا عن رجل موهوب ، وأحمد أمين فى بعض ما يكتبُ رجلٌ موهوب

وهنالك مقال «الحاقة المفقودة» وهو مقالٌ صادق ، وقد كان له تأثير فى بعض البيئات العلمية ، والكاتب الحق هو الذى ينقل الفكر من حال إلى أحوال ، ويعكر صفو الآمنين من حين إلى حين

ثم أما بعد فكتاب « فيض الخاطر » هو صور ذوقية وأدبية واجتماعية لرجل محترم يعاديه قومٌ ويصادقه أقوام ، رجل له أهل وأبناء وأصدقاء وأعداء ، ومن كان كذلك فهو خليق بأن يفهم سرائر المجتمع كل الفهم أو بعض الفهم ، وهو جدير بأن يُنصب لآرائه ميزان